حاضر المصريين

"او سرّ تأخرهم"

يشكو ناقدو الكتب الافرنجية اليوم لا سيما الانكليزية منها كثرة ما يطبع منها وينشر حتى غصّت بها المكاتب وضاقت مخازن باعتها اما نحن فليس لنا ما نتذمّر منهُ من هذا القبيل لقلّة ما يطبع في بلادنا من الكتب لكن شكوانا امرٌ من شكواهم ذلك ان اكثر ما ينشر عندنا تافهٌ لا يستحقّ القراءة وبعضهُ مضرٌّ محلّ بالآداب يستوجب صاحبهُ العقاب وقلّ أن يصدر كتاب فيهِ ما يروي الغليل ويشرح الصدر سواء كان في العلميات او في الادبيات

في مصر اليوم حركة خواطر نشأت بعد هذه النهضة الاخيرة التي تكاد تحيي ميّت الآمال فانّ بعض الفضلاء الذين يعرفون مكمن الادواء اخذوا يبحثون عن اسلوب تحلّ بهِ بعض مشاكل عمران هذه البلاد بعد ان اتسعت موارد ثروتها وزاد اتصالها بالبلدان الاجنبية واختلاط اهلها باهل تلك البلدان واشتراك مصالح الفريقين وبعد ان كثر عدد المتعلمين من الناشئة المصرية فبذل هؤلاء الافاضل جزءاً كبيراً من وقتهم في درس الحالة الحاضرة ومافيها من العلل ونظروا في السبل التي سار فيها هذا العمران والمراحل التي اجتازها وما دهمهُ من النوازل والمصايب وردّهُ على عقبيهِ ثم عكفوا على تشخيص الداء ووصف الدواء ونشروا آراءهم في كتب ومقالات وقصائد اخصّ منها بالذكر كتاب سرّ تقدم الانكليز السكسونيين وكتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة فتلقّى القوم هذه الكتب وتلك المقالات وما نشرتهُ الجرائد والمجلّات في شأنها وبينهم القادح والمادح والمسلّم والمشاغب وانبرى الكتّاب لانتقاد ما فيها على الوجوه التي يعرفها قراء الجرائد المصرية ممّا لا حاجة بنا لاعادتهِ في هذا المقام

وقد ظهر في هذا الشهر كتاب جدّي خليق بالقراءة والتفكير حاول فيهِ صاحبهُ ان يزيح الغطاء عن سرّ تأخّر المصريين . والذين يعرفون المؤلّف يعرفون منهُ شاباً رزيناً قليل الكلام كثير التأمل والدرس محبّاً للاستفادة بعيداً عن المزاح بين ضلوعهِ نفس تميل الى التقدّم في السبل المشروعة ومن كان كذلك فأخلقْ بكتابتهِ ان تكون في المواضيع الجدية المفيدة

يريد المؤلف ان يبسط حالة المصريين الحاضرة في طبقاتهم الثلاث وان يمثلهم لعيونهم كما هم في طباعهم واخلاقهم وامالهم وعاداتهم واساليب معيشتهم والاسباب العاملة في انحطاطهم وما عرض لهم من اسباب النجاح وما يجب اصلاحهُ من احوالهم فنعمل ذلك دون ان يخشى في قولهِ لومة لائم لاعتقادهِ ان ما يقولهُ هو الحق كما يتجلّى لعينيهِ بعد اختبارهِ مواقع

الضعف والشدة في بلادهِ . ولو كان من علماء السيولوجيا لانتظرنا منهُ ان يمهّد لكتابهِ سبيل البحث كأن يأتي على ذكر نواميس العمران وشرائعهِ العامة ثم يستطرق منها الى ما في هذا القطر من الخصوصيات في الاقليم وتشعُّب الاديان واشكال الحكومات التي تولتهُ واختلاف اغراضها وتباين غاياتها وما كان لذلك من الاثر في نفوس اهلهِ وسكانهِ الى ان يتخلَّص الى التخصيص كما فعل لكنَّ الرجل ليس كذلك (ولا اظنهُ من ناقلي الشهادة الابتدائية او الثانوية ! !) فهو كما قلت في وصفهِ مُنِح عيناً نقاوة ونيرة وقلباً يتلهب غيرة ووطنية فقرأ في سفر بلادهِ ما قرأ ثم نقدهُ فميَّز الصحيح من الفاسد وحضَّ على التمسك بالاول والاستزادة منهُ وترك الثاني واستبداله بما هو اصلح لبقاء الامة وفلاحها مشيرًا الى طرق الاصلاح واتخذ لذلك اسلوباً بسيطاً يفهمهُ الجميع وكأن الكتاب من اوَّلهِ الى آخرهِ رواية تمثل حالة الأمة لا ينقصها سوى حديث او حكاية كما يفعل بالروايات التاريخية كبار كتَّابها

اما الصورة التي رسمها فليست مما يسرُّ الناظرين فقد بدت باشدّ الالوان سوادًا وارتدت رداء ضافياً من القباحة وسوء المنظر فاذا كانت هذه الصورة مطابقة للواقع — واودُّ ألاَّ تكون — فالامر اسوأ مما نظنُّ والرجل مصيبٌ في استصراخهِ الامة وافاضلها للهبوب من سبات الغفلة والاهتمام بامورها

والكتاب يحصر كلَّ طبقة من الطبقات الثلاث بمرض او اكثر من امراض العمران ثم يصف الدواء تارة موجزًا وطورًا بالاسهاب ثم يردّ هذه الامراض الى اصل واحد وهو الجهل الفاشي في التربية البيتية والمدرسيَّة وافتقار البلاد الى المعدَّات التي تضمن حسن تلك التربية واستمرارها في المرء بعد تركهِ حضن امهِ ومغادرتهِ المدرسة التي يتلقى علومهُ فيها . امَّا الجهل فلا سبيل الى انكارهِ واما التعليم الذي يدفع شرَّهُ عن البلاد ففي حالةٍ سيئة وقد احسن المؤلف في حضِّ ابناء وطنهِ على الاهتمام بامر المدارس غير معتمدين على الحكومة لكني ارى ان الزمان الذي يتمناهُ لم يجئ بعد فهذا مشروع مدرسة محمد علي الصناعية ليس في البلاد من ينكر فضلهُ ونفع المدرسة ومع ان القائمين بهِ لم يدَّخروا وسعًا في تشويق الناس الى اسعافهِ وبذل المال اعانةً لهُ ومع ان الجرائد تنشر هبات القوم من انحاء مصر كافةً ومع ان المتموّلين في هذا القطر يعدُّون بالالوف فلم يزد المال المجموع عن عشرة آلاف جنيه جزء كبير منها من الاجانب ومثر واحد في اميركا او اوربا يزور مدرسة فيرى فيها نقصًا او حاجة فتهزهُ الاريحية ويجود بمثل هذا المقدار و باضعافهِ ولا تطنطن جرائد بلادهِ بكرمهِ قدر طنطنة جرائدنا بسخاء من يبذل مئة جنيه !

انظر الى اساليب التربية والتعليم المتبعة في الشرق على الوجه الذي ينهُ المؤلف في الطبقات

الثلاث فلا يغرب عنك سر ما تراهُ من التأخر والانحطاط بل ياخذك العجب كيف انَّ هذا الانحطاط لم يبلغ اوطأ الدركات ثم قابل بين الذين نشأوا على هذا النمط وبين اخوانهم الذين اتيحت لهم اسباب التربية والتعليم الصحيحين في هذه البلاد او في البلاد الاجنبية تعلم ان في الشرقيين من الاستعداد الفطري ما يؤهلهم لأن يكونوا رجالاً كباراً اذا غرست فيهم ابَّان الطفولية والصبوة بزور العلم الصحيح والفضيلة والآداب . أليس من المحزنات ان يكون ذلك في وسعنا وان يكون منالهُ قريباً منَّا بشرط ان نسعى اليهِ ثم نحوّل عنهُ وجوهنا ونسير في الجهة الاخرى . أو نعجب بعد هذا كلهِ ان صارت البلاد طعمة للاجانب فكانت تجارتها وصناعتها بايديهم ونأسف لان الضعف داخلها وان القوَّة احاطت بها احاطة السوار بالمعصم أنسينا ان القوَّة اساس النجاح وان لا قوَّة مع الجهل وان الضعيف عبد للقوي

فكتاب حاضر المصريين صورة عامة لحالة البلاد يراها الواحد فتنقبض نفسهُ وما من شرقي يحب لشرقهِ الاَّ ويتمنى ان تتبدل الوان هذه الصورة بما هو ازهى ومناظرها بما هو اجمل والسبيل الوحيد الى ذلك التربية الصحيحة والتعليم المفيد وما خرج عنهما فوسائل لها بعض الفعل ولكنها لا تفي بالغاية المطلوبة . اقول هذا وانا اعلم ان بعض من لهُ اليد في الامر لا يرون هذا الرأي زعماً منهم ان تعليم الفلاَّحين يعود عليهم بالضرر وهي دعوى لا سبيل لاثباتها والادلة على فسادها متوفرة ولضررٌ مع العلم خيرٌ منهُ مع الجهل

وكأن المؤلف لم يترك باباً للوقوف على الحقائق الاَّ قرعهُ يدلك على ذلك ما في الكتاب من الاحصاء في الكتب والجرائد والمطابع والمدارس والمتعلمين والمتعلمات والبيوت التي خربت بفضل تبذير اولادها والجنايات الى آخر ما اشتمل عليهِ من هذا القبيل والعجب منهُ اشاراتهُ في عرض الكلام الى ما جاء في الجرائد المصرية والمجلات ونحوهِ — حتى الاعلانات في الجامع الازهر — من الاقوال التي لها ارتباط بمباحثهِ مما يدلُّ على انهُ كان في اثناء تاليفهِ لا يغفل عن تقييد الشوارد التي تزيد حجتهُ اثباتاً وكلامهُ وضوحاً وجلاء

على اني رأيتهُ يكثر من الاشارة الى ما للتمدن الافرنجي من الاثر في هذه البلاد وكأنهُ يلوم الافرنج على تلقينا عنهم ما تلقيناهُ من العادات والاخلاق التي لا تصلح لنا ولا تفيدنا كما انها لا تصلح لهم ولا تفيدهم على ان الافرنج ليسوا ملومين على اقتباسنا عنهم ما اقتبسناهُ وان يكونوا ملومين في تمسكهم بتلك العادات والاخلاق فمثلنا ومثلهم مثل من يذهب الى السوق ليبتاع حاجة فيرى اصناف البضائع معروضة امامهُ بين جيدٍ ورديء فاذا انتقى الرديء فلومهُ على نفسهِ اذ لم يكن هنالك من اجبرهُ على اختيار صنف دون آخر على أنَّ عذر المؤلف في

ذلك غيرتهُ المحمودة والتزامهُ الايجاز في الكلام في بعض المواضع والاَّ فقد رأيناهُ في غيرها ينصح ابناء بلادهِ كي يتحدَّوا الاوربيين في التحلي بالفضائل والمعارف ويهتموا اهتمامهم باسعاد بلادهم والاهتمام بنجاح اهلها

امَّا الصفة التي تتمثل في الكتاب باجلى بيان فشجاعة صاحبهِ تلك الشجاعة الادبية التي تذلّ امامها الكواسر وتطأطئ الرؤوس فقد جاهر بحقائق لا يروق نشرها فريقاً كبيرًا من الناس ولم يلبسها التدليس ولا التمويه ولا خفَّف طعمها الحادّ بالمدح الفارغ بل نادى بها من على السطح آسفًا نادبًا مظهرًا عيوبًا فاضحة مرشدًا الى الدواء الشافي لكلٍّ منها عالمًا ان تقدم بلادهِ وتمدنها انما هما اكبر العوامل على حفظ كيانها وبقاء اهلها بين الشعوب المتمدنة . رأى الوف الاموال تنفق جزافًا في المقامرة والسكر والفواحش وشاهد الذكاء يختنق في المهد ووابصر القلوب تفسد في الطفولية والصبوة ونظر الجيل ضاربًا اطنابهُ في دور العلم وحجب الغباوة مسدولة على البلاد فاضاء مصباحهُ ورفع عقيرتهُ وبذل جيدهُ واتجر بما عندهُ واتمَّ واجبًا نقضيهِ عليهِ الانسانية والوطنية لا يبتغي اجرًا ولا يطلب شكرًا ولا ينتظر من كتابهِ ربحًا فقد سمعتهُ يقول اذا بيعت جميع ما سيطبع من نسخ هذا الكتاب فستبلغ اجرتي على تأليفهِ نحو مليم واحد عن الساعة الواحدة

وليتهُ بسط الكلام في الفصلين الخاصين بالتجارة والزراعة غير مقتصر على البحث العامّ فيأتي كلامهُ فيهما مرشدًا يرجع اليهِ الذين يودُّون التخلص من ربقة الاستخدام العقيم وهم فئة كبيرة من الشبان المتعلمين ولبعضهم شيء من المال يستطيعون معهُ ان يرفسوا الاستخدام ويلتمسوا العيشة المستقلَّة في ما فيهِ فائدتهم ونفع البلاد

ولو لم يكن في فمي ماء لزدت على ما قالهُ في شأن التعليم في مصر والمدارس التي فيها على اختلاف صبغاتها ومشاربها ولكنني اعيد الآن ما قلتهُ في مجلس ضمَّ نفرًا من الاغنياء وعصبة من الادباء " ان من العار على مصر بما فيها من الاغنياء والاموال ان تلجأ الى البلاد الاجنبية لتعليم اولادها العلوم وان لا يكون فيها مدرسة واحدة جامعة على الاقل تكفي ابناءها مشقة التغرُّب التماسًا لتحصيل المعارف حيث يتلقونها على نمط لا يفي بحاجات بلادهم بل بحاجات البلاد التي يدرسون فيها "

ومع اني اتمنى للكتاب انتشارًا يليق باهميتهِ وفائدتهِ واهتمام صاحبهِ في وضعهِ فاني اخشى ان يكون سرَّ تأخر مؤلفهِ المادّي لان المجاهرة بالحق لا تكسب صاحبها سوى عداوة الخلق لا سيما ما كان منهُ مجرَّدًا عن المدح والتملُّق واذا لم ينتشر هذا الكتاب فذلك من اكبر الادلَّة على تاخرنا وعدم اكتراثنا لما فيهِ فائدتنا ونقدمنا

خليل ثابت